بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

تعلمت منك أن الإنسان لا يبلغ الكمال ولكن حسبه المحاولة.

وأنه حتى ولو بدت نداءاتنا آذاناً في مالطافإن البذور سوف تثمر ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١١٠﴾ ﴾ [يوسف]

هل حقاً وقفتُ على أهم محطات، ولخصتُ أهم دروس مسيرة الأهوال لدرك الأحوال؟ المسيرة التي لم تأبه فيها بالغيلان والفراعين، ركبت سرجك وسبلت نفسك في شأن الدين، والوطن..

لربما كنت تلميذة متعثرة، فاقبل ما فهمته من الدرس يا نعمتنا..

إليك وإلى ذلكم الدين الوضاء، والوطن الحبيب،أهدي ليالي سهري، آلاء محبتي.

رباح

مدخل أول

(جعفر نميري كان يقول أنا ما عارف فلان دا داير شنو؟ أنا أديته نائب أول، وقلت له تعال أبقى رئيس وزراء، وقلت له مستعد أديك أي وزارات تدورها أو أي مسئوليات انت عايزها، لكن انا ما عارف لي يوم الليلة هو داير شنو؟ لأنه أنا قدر ما عرضت ليه هذه الأشياء رفض.. صحيح هو عرض علي أن أكون نائب أول وعرض علي أكون رئيس وزراء، وعرض كثيراً من المناصب وأنا كنت أقول له المسألة ليست في المناصب المسألة في كيف الوصول لهذه المناصب؟ أنا أقول ليك دعنا نغير الوضع بحيث أنه أنا إذا جئت أجي باختيار الناس، إذا عملنا كذا أنا مستعد اشتغل غفير في القصر الجمهوري. لكن بالتعيين بالقوة أنا ما مستعد أتولى أية مسئولية ولا منصبك هذا نفسه).

السيد الصادق المهدي في ٢٨ سبتمبر ١٩٨٦م

أمام ضباط وصف وجنود وادي سيدنا

(الصادق المهدي أنا قلت له إذا كنت تريد أن تكون حاكماً قومياً تعال تعاون معي وأنا أعلمك. أنا لا أريدها وقد عرضت عليه أرفع المناصب، وفتحت له باب المساهمة في العمل العام على مصراعيه ولكنه آثر أن يعيش بعقلية الماضي.)

جعفر نميري

لقاء أجراه فهمي هويدي ونشر في الوطن المصرية في ١٦/ ١٢/ ١٩٨٤م

مدخل ثاني

(لقد قبلت الدعوة للاجتماع في السودان مدركاً أن في الأمر مخاطرة كبيرة، وانتظر إحدى نتيجتين فإما اتفاق عادل، واما التعرض لغدر لن يفيد النظام في المدى البعيد وسيكون دمي أو جسدي داعياً للجهاد وحركة التحرير الديمقراطي في السودان).

السيد الصادق المهدي، في يوليو ١٩٧٧م

رسالة تركها وهو متجه لبورتسودان للقاء النميري

(قال إن عليه أن يجرب صدق نميري، فإذا ما فرض شروطاً لإجراء ذلك اللقاء فإن

الأمر سيترك انطباعاً بأنه خائف أو متهرب..لم اتقبل جداله هذا لأن شجاعة الصادق لا جدال فيها.. لقد غادر الصادق بريطانيا إلى السودان وترك خطاباً وتعليمات محددة فيما إذا لم يعد.. كان قلقاً من أن نميري قد يكون مخادعاً، ومع هذا فقد قرر أن يعرف الحقيقة لأن هذا من مصلحة السودان).

غراهام توماس في كتابه (السودان: موت حلم)

مدخل ثالث

يا عزنا..

وعرق الجهاد ضارب غريق

لا ضل دقّر في حجر

لا جاهرو شيطان البريق

ضارب غريق

لا نبتو صفرن من عطش

لا حتحت الثمر الحريق

ضارب غريق

مرفوعة هامتك في السما

وحرفك أنيق

تروي العطيش تلفى البضيق

جيت للودر طوق النجاة

وما شبعت فوق جوع الفريق

الحبيب محمد صالح مجذوب ، ٢٠٠٥

obeikan.com

مقدمة صاحب السيرة والمسيرة

رحمة الله وسعت كل شيء، ومن نعمه على محبّه الصادق أربعة خصال:

أولها: أنني مهما ظُلمت لم أظلم أحداً، بل كل من تعاون معي منحته ثقة بلا حدود. ثقة أدهشتهم فمن تجاوب مع تلك الثقة أحبني حباً أدهشني، ومن أضاع تلك الثقة تمرد تمرداً أدهشني ودمره.

وثانيها: أن حياتي حفلت برجال ونساء وأطفال بذلوا في خدمتي وخدمة أهداف عليا باختيارهم جهداً من شدته وعمقه يكاد ألا يصدق، كأنما حلت فيهم أرواح أولاد حاج شريف الأسطورية.

وثالثها: أنني مهما تراكمت علي الأرزاء لم تؤثر سلباً على معنوياتي بل اعتبرتها:

قَدْ يَنْعِمُ اللهُ بِالبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ ... وَيَبْتَلِي اللهُ بَعْضَ النَّاسِ بِالنِّعَمِ

بل أضع في صدر مجلسي عبارة «**أشدكم بلاءاً الأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل**[1]»:

عَلى قَدْرِ فضل المرءِ تأْتي خُطُوبُه

ورابعها: وهبت ذرية تفانوا باختيارهم ذكوراً وإناثاً في خدمة أهداف دينية، ووطنية، واجتماعية، عليا أجلها، تفانوا دون استثناء وعلى اختلاف مواقع الأداء.

الحبيبة رباح تجسيد حي للفئتين الثانية والرابعة.

في مكتبي الخاص كتب جمعتها على طول الحياة وأنا أصنف الكتاب خير جليس. وفيها الأوراق المتصلة بعملي، حافظت عليها حرص جعد الكف بالدينار.

هذه الجواهر من كتب وأوراق أضر بحفظها التنقل لحمايتها من عبث الطغاة أثناء

(١) رواه البخاري

اعتقالاتي المتعددة.

ولكن بنتاي الحبيبتان أم سلمة، ورباح، فقد عملتا على تنظيمها وتبويبها.

أما الحبيبة رباح كمسؤولة في مكتبي الخاص فقد ألمت بأوراق حياتي كلها، كما راجعت كل كتاباتي. وشاركت مع أبنائي الأحباب عبد الرحمن فرح، وسامية يعقوب، وإنعام الجمري وغيرهم ممن تعاون معهم في الطباعة والأرشفة الإلكترونية، ذلك أنهم في مكتبي الخاص قرروا منذ العام ٢٠٠٠م أن يطبعوا أعمالي كلها في مجلدات أتمنى لهم التوفيق.

الحبيبة رباح رأت أن توثق لسيرة حياتي استناداً لما سمعته مني في مناسبات كثيرة وللأوراق المرتبة في المكتبة.

هذا السفر هو الجزء الأول من هذه السيرة وهو يصلح مرجعاً تاريخياً وأدبياً مثلما هو سيرة حياة.

إن دراسة رباح الهندسية، وموهبتها كشاعرة وفنانة تشكيلية، جعلت عملها يكتسب منهجية العلم الطبيعي، وانعتاق الفن، والعمق الروحي، والإتقان. كأنها تتعبد ربها بالإتقان. «إِنَّ اللَّهَ تَعَالى يُحِبّ إِذَا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلاً أَنْ يُتْقِنَهُ»[1].

إن في هذا الكتاب لوحة جامعة لهذه المعاني، وأقل ما فيها بر بنت بوالدها، وخير ما فيها ديوان أحداث وأفكار تهم جيلنا والأجيال بعدنا، فالماضي جذر الحاضر والمستقبل. ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾﴾.

الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي

القاهرة نوفمبر ٢٠١٥م

(١) رواه الطبراني

مقدمة الأجزاء الثلاثة الأولى

بسم الله والحمد لله القائل ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ والصلاة على حبيبنا المصطفى الذي أثبت للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجر إذا أخطأ، وبعد-

الإمام الصادق المهدي شخصية لها أثر يمتد من نطاقه الوطني السوداني إلى إقليميه العربي والأفريقي والعالم.

ففي وطنه انتخب رئيساً للوزراء مرتين في عهود ديمقراطية (يوليو ١٩٦٦-مايو ١٩٦٥م) و(مايو١٩٨٦-يونيو ١٩٨٩م)، وانتخب رئيساً لحزب الأمة وإماماً للأنصار الكيان الديني الأكبر بالسودان. وإقليمياً اختير رئيسا للمنتدى العالمي للوسطية، وصنفه معهد الدراسات الموضوعية بنيودلهي، الهند، ضمن أعظم مائة شخصية مسلمة في القرن العشرين، وعالمياً حاز على جائزة قوسي للسلام للعام ٢٠١٣م، بالفلبين. ويعد من أبرز الناشطين بنادي مدريد وهو نادٍ لرؤساء حكومات ودول سابقين يعمل على تمكين وتطوير الديمقراطية في العالم. وهو نشط فكرياً بالتأليف والخطب المنبرية واللقاءات الإعلامية، وسياسياً عبر حزب الأمة، ودينياً عبر هيئة شئون الأنصار، فهو ذو اهتمامات عديدة تمد صلتها لفكرة التحديث المؤصل.

وبالرغم من أنه وجدت كتب وأدبيات عديدة تعرضت إيجاباً أو سلباً لجانب من أدائه سواء السياسي أو الفكري إلا أنه لم يوجد كتاب لسيرته، على أهمية مثل هذا الكتاب في التعريف بشخصيته منذ نشأتها، وتطور فكره، وملامح عطائه السياسي بتتبع لصيق.

وقد حاولت كثيراً حضه على تدوين سيرته، وبصفتي مسئولة الدراسات والنشر في مكتبه تبنيت مخططاً لكتابة تلك السيرة لتنشر بالتزامن مع احتفاليتنا بعيده السبعيني في ديسمبر ٢٠٠٥م، ولكن حال دون ذلك أنه لم يتحمس كثيراً للفكرة في البداية باعتبار أنه يدوّن كل الأشياء والفترات الهامة التي مرت به وشارك في أحداثها فلم يتبق من السيرة سوى الرواية عن الذات ولم يكن متحمساً لها.

ولهذا بدأت في هذا الجهد قبل نحو أربع سنوات، ولكن ببطء فرضته ظروف الإقامة في السودان والمشاغل الملتفة، وبرغم ذلك واصلت، ولم يثنني أنه استجاب للدعوات المتكررة بتسجيل ذكرياته أخيراً وبدأ في ذلك فعلاً إبان إقامته الحالية بمصر منذ ديسمبر ٢٠١٤م، كما سجّل ستة عشر حلقة من برنامج (شاهد على العصر) الذي يقدمه الإعلامي المجتهد أحمد منصور بقناة الجزيرة والتي تبث هذه الأيام وفيها من معلومات السيرة الكثير.

واصلت في إكمال الكتاب والسعي لنشره لأن إخراجي للأوراق كان بصورة مختلفة عن تلك التي خرجت بها حلقات السيرة أو الشهادة على العصر، وإن كانت أكملت بعض النقص في كتابي. فالقيمة الأساسية لهذا الكتاب أنه يجمّع أهم الشهادات التي كتبها الإمام الصادق المهدي حول الأحداث المختلفة، وبعضها مأخوذ من وثائق مغمورة لا أظن اطلع عليها أحد.

فحديث الحبيب الإمام الصادق المهدي حول تدوينه للأحداث المهمة في حياته صحيح من ناحية وجود عدد من الأدبيات التي تغطي الفترات والأعمال المهمة التي قام بها أو شارك فيها. كما أنه يحرص دائماً على اصطحاب أجندة يودعها اللقاءات والأفكار والأحداث بل حتى الرؤى المهمة، ويبثها همه أحياناً، وأبيات الشعر التي تسليه، ومن أسف أن أجندة كثير من الأعوام ضائعة مع الجزء المفقود من مكتبته أو بسبب التنقل المستمر.

وبرغم هذا التدوين المذكور، فلا شيء يعدل روايته المباشرة للأحداث وانطباعاته حول الموضوعات التي تثيرها. ولو كان الحبيب الإمام الصادق هو كاتب السيرة لكنا قرأنا عجباً.

المصادر الأساسية

وما صنعته هنا هو أنني قلبت بين أوراقه، ما استطعت فهي كثيرة عصية على الحصر وفوق طاقتي الحالية وإن كنت أظنني بلا ادعاء أكثر شخص على ظهر البسيطة مطلع على كتاباته حتى الآن. انتخبتُ من تلك الأوراق رواياته للأحداث ونقاشاته للقضايا التي كانت تشغل باله في مراحل حياته المختلفة، وأحياناً جلبتُ أكثر من رواية له لنفس

الحدث مع ما في ذلك من تكرار تغاضيتُ عنه لاختلاف في التناول أو نظرات أو معلومات جديدة، كما أشرتُ لأعمال أو كتابات مهمة في سياق مشروعه الفكري ووضعتها ضمن السيرة.

ومن الأوراق التي دوّن فيها تجاربه ورقة (ثلاث سنوات في خمسينيات القرن) التي دونها في ١٨ مارس ١٩٨٣م وروى فيها مذكراته في كلية فيكتوريا، ثم كلية الخرطوم الجامعية، ثم دراسته في جامعة أوكسفرد بكلية القديس يوحنا، وهي موجودة بأكملها في الفصل الأول المعني بالمولد والنشأة (مجاهد جاي من كبكابية) في الجزء الأول للكتاب بعنوان (بينج ماريال)[1]، يضاف إليها مذكرات (تضاريس الذاكرة) التي أصدرها البيت العربي في مدريد عام ٢٠١٠م كثالث إصدارة في سلسلة تضاريس الذاكرة مع قادة وزعماء ومفكرين عرب.

أما كتاب (جهاد في سبيل الديمقراطية) الذي يرصد دور الإمام الصديق في مناهضة حكم عبود، فقد كان مرجعاً رئيسياً في الفصل الثاني للجزء الأول (رياح لم تشتهها السفن).

وكتاب (الانشقاق في حزب الأمة بالوثائق) يروي الأحداث التي أدت للخلاف داخل الحزب في الأعوام ١٩٦٢ وحتى ١٩٦٨م، وكان مرجعاً أساسياً في الفصل الرابع من الجزء الأول (بينج ماريال) الذي أضفتُ إلى مقتطفاته عدد من الأوراق بعضها ناقص وبعضها جزء من كتب ضائعة، إضافة لمذكرات السيد الصادق في سجن جبيت في الفترة (يونيو- يوليو ١٩٦٩م) وهي مدونات لم تنشر على قدر كبير من الأهمية وقد اقتبستُ منها بتصرف نظراً للصراحة البالغة التي كان يكتب بها كأنها شهادة للتاريخ من النوع الذي يودع في دار الوثائق مختوم بالشمع الأحمر! وكتاب (خطب السيد رئيس مجلس الوزراء لسنة ١٩٦٦م)، ومحضر لقاء دونه السيد الصادق بسجن شندي، بالإضافة إلى أجندة العام ١٩٦٢م.

كتاب المصالحة الوطنية الصادر عام ١٩٧٨م يروي الأحداث منذ قيام انقلاب ٢٥

(١) يرد في الفصل الرابع من الجزء الأول شرح للتسمية (بينج ماريال) والتي أطلقها عليه الدينكا لدى زيارته للجنوب في ١٩٦٦م وفي أحد تفسيراتها تشير للجمع بين الشباب والزعامة.

مايو وحتى تاريخ كتابته، وأنت تجد/ ين أن معظم فقرات هذا الكتاب إما موجود بكاملها أو ملخصة في الجزء الثاني من الكتاب (ظلام أب عاج)، مع الاستعانة في أوله بمذكرات سجون جبيت وبورتسودان وشندي، وبسلسلة (مذكرات الإمام الصادق المهدي في السجون) التي نشرتها صحيفة الأخبار في أغسطس ٢٠١٠م، وفي آخره تمت الاستعانة بكتاب «ميزان المصير الوطني في السودان» الصادر عشية انفصال الجنوب المرير عام ٢٠١٠م.

الجزء الثالث من الكتاب والذي يروي قصة الديمقراطية الثالثة جزء منه مأخوذ من كتابه (الديمقراطية في السودان عائدة وراجحة). ومجلدات خطب السيد رئيس مجلس الوزراء الثلاثة التي تغطي الفترة من ٦ مايو ١٩٨٦ وحتى ٣١ ديسمبر ١٩٨٨م (أما الجزء الرابع الذي يغطي الفترة المتبقية حتى ٣٠ يونيو ١٩٨٩م فلم أفلح في الحصول عليه)، بالإضافة لكتاب (ميزان المصير الوطني)، وهكذا..

الكثير من هذه الأوراق نفسها لم نجدها بهذه السهولة التي نسردها بها، فمكتبة الحبيب الإمام الصادق المهدي ووثائقه عانوا مثله إبان الشموليات التي احتلت أكثر من ثلاثة أرباع عمر السودان المستقل. وقد عشت حياة هذه الوثائق القلقة منذ بل حتى قبل تخرجي من دراسة الهندسة بجامعة الخرطوم عام ١٩٩١م. فانكببت على وثائقه وكتبه أبحث عنها وأجمعها وكانت موزعة في المخازن في حالة رديئة وبعضها مجموع في جوالات وأخرى «مبهولة» وبعضها في شنط، ومنها ما تسربت إليه مياه الأمطار وما أكلت منه دابة الأرض «الأرضة» وذلك أنه كلما كانت هناك غارة أمنية على بيتنا (وكانت تلك الغارات طيلة عهد مايو و«الإنقاذ» حالة متكررة) كان هناك قسم كبير من الأوراق يُخفى بسرعة داخل المخازن حتى لا تلحقه الأيدي الآثمة.

ولم يفت زمان طويل منذ جمعتها في ١٩٩١م وبدأت في تصنيفها وترتيبها حتى جاء الإنذار بأن البيت معرض للمصادرة إثر اقتلاع منزل المرحوم الدكتور عمر نور الدائم في ١٩٩٧م، كان السيد الصادق حينها قد هاجر في «تهتدون» فلم يهتم إلا بمصير المكتبة ونظر للبيت كطين زائل، وطالب بأن توزع المكتبة بين الأحباب المضمونين لئلا تطالها اليد الباغية ويكون مصيرها كمكتبة الدار الثرية التي نهبوها عشية انقلابهم فلم يُعرف مصيرها حتى الآن.

تولت الوالدة المرحومة الحبيبة سارا يساندها شقيقي الصديق توزيع المكتبة على عدد من الأحباب، ولم يسجلوا الأسماء بالطبع خشية الملاحقة الأمنية وأن تكتشف القائمة فتركوا المسألة محفوظة في الصدور، والصدور بئس المستودع! أما في بيتنا فحفظها كما يحفظ البحر النقوش! ولذا حض ربنا على الاستكتاب حتى لا نرتاب ولا ننسى. المهم في نهاية الأمر، بعد أن عاد السيد الصادق في «تفلحون» عام ٢٠٠٠م هب بعض الأحباب وأعادوا ما عندهم من كتب وأوراق مشكورين، وآخرون الله يعلمهم احتفظوا بها ظناً منهم أن وقت إعادتها لم يحن بعد خاصة وليل «الإنقاذ» الطويل لا زال يجثم على صدرنا. فقمنا بالإعلان في الصحف، وفي منبر صلاة الجمعة، ولم يأتنا مردود تلك النداءات، فلا زالت الأوراق والكتب ناقصة بشكل مؤلم.. وبرغم ذلك فإن حصيلتنا من الأوراق هائلة.

ومن أهم الأدبيات الموجودة في هذا الصدد هي خطب السيد الصادق في حكومته الأولى بستينات القرن العشرين والتي غطت مواقفه وآراءه في حكومته الأولى بالستينات وقد وجدناها بحوزة الدكتور عبد الرحمن الغالي، ومجلدات خطبه كرئيس للوزراء في الثمانينات وهي أربعة وجدنا ثلاثة منها بحوزة الحبيب مولانا آدم أحمد يوسف، أما الرابع الذي يحوي خطب العام ١٩٨٩م فلم نحصل عليه كما ذكرت آنفاً!

ومثلما استفدتُ من بعض الروايات وأهمها روايته هو نفسه لقصة حياته ويرد في الكتاب كيف نظم لنا درساً لسيرته الذاتية في مطلع تعرفنا عليه، فقد استفدتُ للتاريخ في مرحلة الطفولة والصبا من عدد من الخطابات خاصة خطاباته وأخيه عصام وخطابات الإمام عبد الرحمن المهدي لوالدته السيدة رحمة.

كتاب السيرة والمسيرة

المرة الأولى التي حاولت فيها تدوين جانبا من عطاء الحبيب الإمام الصادق المهدي ومواقفه كانت حينما اتصل بنا في عام ٢٠٠٧ بعض الأحباب الذين أرادوا التقديم له لنيل تكريم يستحقه فطالبوا أن نرصد لهم أهم جوانب عطائه، فقمت يومها بكتابة «مفردات التفرد في تجربة الإمام الصادق المهدي»، مفردات التميز في تجربته كحاكم، وكمعارض، وكزعيم حزبي، وكقائد ديني، وكمفكر، ثم تطرقت للتفرد في مسألة

الكسب المعيشي، وختمتها بذكر أهم مفردات الاعتراف بتفرد الإمام وطنياً وإقليمياً ودولياً.

والآن تصديت لكتابة موسعة ترصد سيرته عبر أوراقه وما كتب عنه في إطار بحوثي، وهو هدف طموح جداً كلما أوغلت في تنفيذه وجدتني في محيط أعمق. ورأيت أن يخرج الكتاب في خمسة أجزاء مركزاً على سيرة للحبيب الإمام الصادق المهدي، وأهم ملامح فكره، وعطائه السياسي، وبعض مميزاته الشخصية. وذلك على النحو التالي:

الجزء الأول: يغطي الفترة حتى حلول الظلام المايوي، بعنوان (بينج ماريال). وهو لقب أطلقه الدينكا على السيد الصادق لدى زيارته للجنوب في ١٩٦٦م، ويعني الزعيم ماريال، وقد اختلفت تفسيرات أساتذة لغة الدينكا الذين قابلتهم للتسمية، وكان أحد التفسيرات أنه تشبيه له بطائر الغرنوق الذي يجمع بين جمال المنظر والنبل، فهو حينها كان يجمع بين الشباب والزعامة فكأنما هو تناقض شبيه.

الجزء الثاني: يغطي فترة الانقلاب المايوي، بعنوان (ظلام أب عاج)، ولقب (أب عاج) كان يطلقه نصراء نظام مايو على رئيسه الذي كان يحمل عصا من العاج دارت حولها الأساطير.

الجزء الثالث: يغطي فترة الديمقراطية الثالثة، بعنوان (الصادق أمل الأمة..ولكن!)

الجزء الرابع: يغطي فترة ليل (الإنقاذ) الطويل.

الجزء الخامس: يهتم بتحليل فكر الإمام والتطور فيه، وبعض مميزات الحبيب الإمام الصادق المهدي الشخصية، وباب حول الأشعار التي قيلت حوله، وأهم الأقوال والتحليلات لدوره من قبل آخرين.

وتخرج الأجزاء الثلاثة الآن متزامنة مع ثمانينية الحبيب الإمام الصادق المهدي، وذلك بأمل إلحاق الجزئين الرابع والخامس حالما يتم إعدادهما بعون الله وتوفيقه.

جزء كبير من مادة الأجزاء الثلاثة هذه كما أشرت هي عبارة عن كتابات سابقة للسيد الصادق المهدي، أو ملخصات عنها، إذ قمت بجمع المادة وتحريرها وترتيبها بتسلسل تاريخي، مع ربطها برواية متسقة للأحداث مستعينة بروايات سمعتها أو ببحث محدود

في بعض الأدبيات التي تغطي الأحداث التي أرويها. ولهذا لا يمكن القول إن الكتاب من تأليفي بينما ثلاثة أرباعه تقريباً عبارة عن كتابات قمت فقط بتحريرها وجمعها في سياق رواية متصلة.

وقد اخترتُ أن أروي عنه وبالطبع واجهتني مشكلة اللقب فهو والدي وإمامي و«الحبيب» الكلمة التي صارت تعنيه في مخاطباتنا، ولكني تركت قلمي يسير مع عمره فهو الصادق أو السيد الصادق وهو صغير إلا إذا رويت عنه رواية حديثة حيث يتحول «للإمام الحبيب»، وأرجو ألا تضير هذه اللغة القارئ، ولا ينظرن للألقاب، فالحبيب الإمام الصادق المهدي ليس ممن يضيف إليهم اللقب أو يحذف عنهم، وكنت عودت نفسي أن أكتب عنه كما يحب من الشعب السوداني أن يناديه (الصادق) لأنه برأيه يحول الاسم إلى صفة محببة. ولكني تركت لمحبي اللقب أوقاتا فيها ينعمون! وأنا أعلم مدى أهميته لدى كثيرين، وقد رُوي أن صحافياً أنصارياً مخضرماً في صحيفة مستقلة، حينما عرض عليه مقال لكاتب كان يشير للحبيب الإمام الصادق ب«الأستاذ»، وذلك في عرفه قلة أدب ما قبلها ولا بعدها ولكنها مغلفة، قال للمحرر احذف هذا اللقب واتركه الصادق قراحاً ليعلم الجميع أنه قليل الأدب!

ولكنا لنا رأي مغاير عن تلك الفكرة، ولا يضيرنا أن نتحدث عنه باسم الصادق، بينما نحبه ونجله ونعترف بفضله أيما اعتراف! وأنت تجد/ ين في آثار الإمام المهدي عليه السلام انتقاداً لاستخدام الألقاب باعتبارها باباً للتكبر المذموم، كذلك تجد/ ين لدى بعض حاملي الألقاب في بلادنا خواءً يدعو للرثاء ولدى بعض المتجردين منه امتلاءً ورواءً يدعو للاحتفاء، وكما قال شاعرنا الفيتوري رحمه الله فالغافل من ظن الأشياء هي الأشياء! ومجمل القول إن حبيبنا يزين اللقب وليس العكس، ولا حاجة لي بتزيين الألقاب: مطية الخاوين وزينة الذين هم عن الفضل عارين!

وفي هذا الكتاب حرصتُ إذا كان الكلام نقلاً عن روايته على ترك ما رواه بنفسه بنفس اللغة (ضمير المتكلم)، وحرصت على التفرقة بين ما سقته من روايات الآخرين أو مشاهداتي أو من البحث، وبين ما جاء بلسانه بتغيير شكل الخط. ولكن هذا التغيير أحيانا خادع، فكثير مما هو وارد كأنه روايتي في الحقيقة تلخيص أو تحرير لمادة كتبها خاصة كتاب المصالحة الوطنية.

مشروع الكتابة عن الإمام الصادق المهدي مشروع طموح جداً فجوانبه عديدة وعطاؤه ثر، وحتى السرديات المتعلقة بسيرته كثيرة من لقاءات صحفية وتلفزيونية وأجندة وأوراق وكتب ومدونات. لذلك فإن المغامرة بإخراج كتاب يدعي تغطية الفترة التي يرصدها الكتاب ظلم وجهل كما هو حال الإنسان الذي وصفه ربه في تقلد حمل الأمانة التي أبتها السموات والأرض والجبال.

ولكن شجعني في المقابل معطيات محفزة، فالمادة حول كثير من حقب حياته شبه جاهزة. وعلاوة على كوني ابنته وذلك باب لمعرفة لصيقة، فقد كنت فرداً غير رسمي في مكتبه منذ فترة الديمقراطية حيث كنت أقضي ساعات طويلة في المكتبة، وكنت ألازمه في بعض الأسفار الخارجية حينما تسمح ظروف دراستي، بعد ذلك لازمته كمساعدة بحثية ومسئولة من أوراقه ومكتبته بشكل رسمي منذ ١٩٩١م أي ربع قرن حتى الآن ولفترة أكثر من نصف عمري، ذهبت على إثره للقاهرة ثم عدت معه في «تفلحون»، ومنذ تكوين مكتبه الخاص بشكل مؤسسي سنة ٢٠٠٠ تقلدت منصب سكرتيرة المعلومات والدراسات والمكتبة والنشر، وعبره توثقت معرفتي بالآلية التي يتابع بها الأحداث ويتفاعل بها معها.

هذه الفترة الطويلة جعلتني قريبة منه فيزيائياً بما يسهل علي رصد تحركاته وأعماله، ولكن الأكثر من ذلك هو القرب الفكري حتى أنه صار أحياناً يعود لي يسألني عن بعض آرائه والمقولات التي يستشهد بها إذا ند عليه موضعها ويقول إن «رباح هي ذاكرتي».. وأخيراً وهو يستعد لحلقات (شاهد على العصر) ساعدته ببعض بحوثي حوله فقال لي: لقد صرتِ تعرفيني أكثر مني! وهذه قلادات أعتز بها، وأدعو الله أن أكون قدرها.

ولعلك تقول/ ين كما قال كثيرون إن هذا الكتاب هو مصداقاً للكلمة القديمة: كل فتاة بأبيها معجبة! ولعلك تتعجب لو قلت لك إن باب الأبوة لم يكن باباً للإعجاب بحد ذاته، فحينما بدأت تجربتي مع الإمام كابنة كنت ملأى بالحنق على هجرنا طيلة سنوات طفولتنا الأولى، فكم كان يؤلمني مثلاً ونحن صغار سؤال بعض أندادنا في الأسرة هل لكم أب أو أين أبوكم؟ وكان هذا السؤال من إحدى بنات الأهل حجاباً عنها امتد لسنوات، كنت أحسها كمن صفعني في خد مجروح! ولذلك كنت غير مستعدة للتعامل بأريحية مع ذلكم القادم الجديد حينما بدأ يطل في حياتنا، والذي يبدو أن لديه رؤى

كثيرة لست مستعدة لاتباعها بحال، وقد واجه الإمام شيئاً من هذا الرفض الظاهر أو المستتر منا جميعا بدرجات متفاوتة ربما باستثناء قليلين. ولكن منهجه في التعامل معنا كان قاصماً لظهر هذه الشنشنة التي أبدلها أصحابها وصاحباتها طوعاً بعرفان لقيمة هذا الرجل والقمة التي يتربعها على مرتفعات المكارم.

فهو برغم رؤاه الواضحة وقيمه الأخلاقية والدينية العالية، لم ينه ولم يأمر ولم يعاقب أو يزجر، وقرّبنا إليه حينما أتيحت له ظروف، في جو من المحبة والاحترام لذات كل شخص منا وفضّل التوجيه لا باللسان ولكن بإعطاء القدوة. إنه رجلٌ مهيبٌ عظيم ونحن كنا نشهد كم من الناس كان يجله، ولكنه كان يجلس بيننا ونحن أبناؤه الصغار الذين شهدنا كيف تعني الأبوة في السودان شيئاً أقرب للسخرة، أو بين محبيه الذين يعلم كم تسعدهم خدمته، ولكنه يخدم نفسه بنفسه، ويستكثر حتى أن يطلب أحداً مناولته كوب ماء!

وإني لن أغالطك قارئي في أن الكتاب يأتي كإعجاب فتاة بأبيها، ولكني ألتمس أن تنظر فيما أقول بعين النقد لا عين الانطباع، والنقد يستكنه الأشياء ولا يكتفي بالأحكام والانطباعات السابقة أو السريعة، فإن كان ما أتيت به هو من باب ما يمكن أن تقوله أية فتاة معجبة بأبيها فلك أن تحكم علي بأنني مقادة بعاطفة البنوة وأن الكتاب نتاج عاطفة وتزيين، وإن رأيت أن ما ذكرته فيه رصد وبحث وخبرة ولا ينفي العقل وإن لف بالمحبة، فاحكم لكتابي هذا بأنه صفحات من حياة رجل أثر ويؤثر على حياة السودانيين وأفكارهم بل حياة كثيرين خارج السودان، ويحق لهؤلاء جميعاً الاطلاع عليها، وأنه يستحق أن ننظر إليه بتعاطف، هو الذي قدم وما استبقى شيئاً!

وإني لا أنسى في النهاية أن أؤكد أن ما جاء في الكتاب وإن كان في قسم كبير منه من كتابات الإمام الصادق المهدي إلا أنه غير مسئول مما فيه من قريب أو بعيد بل رفض مراجعته وتصويبي لو اشتططت أو مساعدتي فيما غاب عني من أحداث، وإن كان رضي أن يكتب مقدمة له بدون أن يصحح أو يقوم، مطالباً إياي بتقلد مسئوليتي في الرصد بعيداً عن حكمه وليس مطلوباً مني في النهاية (لوحاً محفوظاً) أو كما قال.

وهذه النقطة مهمة للغاية لأنني اتضح لي أثناء مشاهدة حلقات (شاهد على العصر) التي بثت في النصف الثاني من هذا العام (٢٠١٥م) أنني أوردت معلومات غير دقيقة

أحياناً، وكنت اتصل به وهو في القاهرة لأسأله أو أحاول الانتصار لرصدي أحياناً حتى تأتي التوضيحات الدامغة منه، ومن ذلك نلت معلومات إضافية كنت بها حفية.

وإن كنت اجتهدت للحصول على رواية لأهم الأحداث بحسب معرفتي وإلمامي، إلا أنه لم يتح لي الاستفادة من مصادر هامة مثل دار الوثائق القومية خاصة أرشيف الصحف فيها، وبالرغم من رجوعي لبعض الكتب والدراسات والبحوث التي نشرها آخرون إلا أن مصدري الأساسي كان كتابات الإمام الصادق المهدي نفسه، وحتى هذه ما أمكن استصحابها جميعا كما ذكرت.

وقد أقحمت أحيانا ذكرياتي وانطباعاتي لا لأهميتها بحال، ولكن لإضافة مسحة حميمية على الكتاب الذي صيغت أغلب فصوله بتجريدية بالغة، وذلك كعربون إلفة للقارئ. كما أضفت روايات في إطار ينكره البعض، فإن لم يقنع أولئك بأن في الكون روحانيات، فلينسبوها للتخاطر أو الاستبصار Telepathy أو أي من ضروب الباراسايكولوجي التي صارت تدرّس لدى أعتى الماديين.

وقبل الختام، أعد بمواصلة هذا الجهد حتى تمام الأجزاء المزمعة بإذن الله، وأقر بأني وقد فتحت ثغرة على نبع المعرفة وأنا أقلب أوراق الإمام الصادق المهدي وجدت السيل يغمرني ويشرقني، وكثير من الأوراق التي طالعتها مست شغاف قلبي، وفي النهاية جددت دهشتي بهذا الحبيب! ولكن، لا ينبغي النظر لهذه الدهشة باعتبارها حجاباً يعمي عن النظر الموضوعي، فأحياناً برغمها خالفت رؤى الإمام الصادق، وربما مردُّ ذلك الخلاف أني تتلمذتُ على رؤاه وتشبعتُ بروحه التي تشع من كتاباته المنادية بتغيير الواقع وتثويره منذ صغري، ولم أمارس السياسة عملياً بذات القدر، لذلك صرت أقل قدرة على تفهم الموازنات التي كثيراً ما جعلته يصالح الواقع، مثلما يشير كثيراً لفقه التنزيل في مفهوم ابن قيم الجوزية قائلاً إن الفقيه هو الذي يدرك الواجب ويفهم الواقع ويزاوج بينهما.

وإضافة لاختلاف التقديرات، ليست هناك مسيرة بشرية تخلو من خطأ، وبكلمات السيد الصادق ذاته في أكتوبر ١٩٦٦ مؤكداً أن الأداء الإنساني لا مجال فيه للكمال: (كل أداء أنساني مهما كان ذلك الأداء حتى وإن كان في أدق أوضاع الهندسة لا بد له من تقصير في شيء ما، فالأداء الإنساني مربوط بالنقص ارتباط الإنسان بطبيعته وتكوينه)

ولهذا سنجد أنه أحياناً أقر بارتكاب أخطاء ندم عليها.

الشاهد، لقد بدا هذا الحبيب غريباً في ستينات القرن الماضي وهو يطلق صيحة تحديث مؤصل في واقع منقسم بين الذين سدروا خلف صاحب الناي الحداثوي مشغولين ببعض قشوره غير آبهين بجوهر الحداثة، وبين الذين قنعوا بواقع التخلف وارتضوا مواريث المجتمع وقيمه كما هي، فجلب معه ذلك الذهن المرتب إلى رئاسة الوزارة، وقد أطلق نداء التطوير والتحديث في كل ملفات العمل من ضرورة التقيد بالميزانية، وإصلاح الخدمة المدنية، وعمل الجمعية، والعمل الحزبي، وغيرها من الملفات. وظل صوتاً ينادي بالتطوير والمأسسة من داخل كيان وصم بالتقليدية، متناقضاً مع ما يسود مجتمعنا من تحلل، غريباً على ما حوله من نماذج منها من سعى لتثبيت واقع التخلف والإفادة من ميزات القيادة بالإرث حشداً لجماهير مذعنة خلف مصالحه، ومنها من استغل الأشكال الحداثوية مطية لنظم النخبة في سلك أغراضه.. نعم كان غريباً، وهبت في وجهه أعاصير الرفض من الحرس القديم، ثم ركب أهل الشعارات التقدمية الدبابات فما وجدوا لسهامهم من صيدٍ أعز منه. وظل يعافر ويقاتل ويصالح ويواجه حتى كانت الانتفاضة المباركة وله فيها سهم مع غيره من قوى الانتفاضة الباسلة، ليأتي حاكماً من جديد، وتبدو مواقفه ورؤاه محط أمل جموع كبيرة، ومحط نقد ومناورات لمعارضين كثر في اليمين واليسار والوسط، فيبدو من جديد وكأنه قريب من الأمل غريب ممن حوله حتى داخل حزبه أحياناً، تتلاحم من حوله وتعلو أمواج وتقترب الحيتان وهو يقود السفين في بسالة وفي استماتة.

ويبدو مشوار الحبيب الطويل ذاك وكأنه رحلة أحد أبطال الأحاجي كحسن الشاطر، أو فاطمة السمحة، وما فيها من غيلان وسعالي، أو كالأوديسة وأهوالها العجيبة، وتراه يواجهها بذاك الوجه الباسم أبداً، ويعلّق على صفحة المرآة التي يلف أمامها عمامته برشامة للصبر: (إذا زاد فضل المرء زادت خطوبه ويحمد منه الصبر فيما يصيبه/ فمن قل فيما يلتقيه اصطباره لقد قل فيما يرتجيه نصيبه).. كتب عنه ذلك الصحفي العربي أنه (المعذّب في الأرض) ومع أنه لم يستطع إدراك كنه ذلك العذاب كما نراه لكنه لمح الظاهرة، ثم أنشد له المغني في ليلة العرفان: لو ينحني الجبل الأصم ..لا تنحني!!

إنها مسيرة يصعب تلخيصها، تشد العصب وتشرع الروح في أساطيل الشجى، ولكنها صفحات أحضرت فيها من قراطيس السيد الصادق المهدي ما رأيته يروي الرواية، وأضفت من عندي. وهو رصد قطعاً مثلما ينبع من محبة الحبيب الإمام الصادق المهدي، ينبع من محبة الحقيقة ومن محبة الحبيب الأعظم الذي أوصانا بتحري الصدق ﷺ، ومن محبة هذا الشعب العظيم الذي إنما أوقف حبيبنا عليه حياته، اللهم احفظه لنا وبارك في أيامه، واذهب اللهم قيد بلادنا وأحطها بالعناية التي تذهب عنها النكاية، آمين.

وفي نهاية مقدمتي هذه أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في مدي بالوثائق التي احتجتها وقد قطعت البحر الأحمر نحو ديار الحرمين الشريفين فلم يمكن اصطحاب كل المكتبة التي تعوزني. وأخص بالامتنان الكاتب الصحفي الكبير الأستاذ مصطفى عبد العزيز البطل الذي بعد إفادتي القصوى من واحد وعشرينيته حول فترة الديمقراطية الثالثة رأيت أن أعرض عليه الجزء الثالث ليراجعه ففعل ذلك مشكوراً في سرعة تؤكد أنه قارض مهول للكتب، وأغراني جوده بسؤاله المزيد فلم يبخل بملاحظاته وتصحيحاته التي أفادتني كثيراً في الأجزاء الثلاثة، جزاه الله عني كل خير.

كما أشكر الأحباب رشيدة إبراهيم عبد الكريم، وصديق الصادق، على ما جوّدوا من عملي بنظراتهم وملاحظاتهم.

ولا يفوتني شكر زوجي الحبيب عبد الرحمن الغالي الذي صبر على انكبابي المتصل وما جره من انشغال ورهق ومن ثم علل فكانت شفقته تؤاخي تشجيعه، وكم كنت أغرف من علمه وخبراته شفاهياً وقد ظللت أفعلها طيلة تلك السنين! ومحبتي وامتناني للصغار الثلاثة: محمد الرشيد، ورحمة، والطاهر، وأختهم الكبرى أمان التي كانت تتابع من بعد، فقد عانوا معي مخاض هذا السفر وكانوا يعبرون عن إشفاقهم من طول ليالي الكد والسهر، إني أدعو الله أن يكون في جهدي ما يشحذهم وجيلهم نحو عطاء متصل للوطن، أسوة بصاحب السيرة والمسيرة. فلو تم تدويل مثل كدحه وجده واجتهاده في بلادنا لبلغنا الحداء (**شان هنانا، شان منانا.. شان عيون أطفالنا ما تضوق الهزيمة**).. آمين.. آمين.. آمين.

رباح الصادق المهدي

أبها في نوفمبر ٢٠١٥م